قصائد من أريش فريد

تقديم وترجمة: عيسى علاونة

ولد الشّاعر أريش فريد Erich Fried عام ١٩٢١ في العاصمة النّمساويّة ڤينّا لأبوين يهوديين. وقضى طفولته في بيت متواضع في حي رقم ٩ الّذي كانت تمتلكه جدّته لأمّه.

دخل المدرسة الابتدائيّة عام ١٩٢٧ في زمن كانت فيه العاصمةُ النّمساويّة هذه تدعى «ڤينّا الحمراء»، لكونها العاصمة الأوروبيّة الوحيدة الّتي تولّى إدارتها الاشتراكيون. وكانت ڤينّا في الوقت نفسه تُعتبر من أهمّ المراكز الثّقافيّة في أوروبّا. ثمّ كان يوم ١٥/٧/١٩٢٧ من أيّام ڤينّا المفزعة الذي ترك أثراً مريعاً في نفس الصّبيّ أريش فريد؛ فقد كان وهو في السادسة من عمره يراقب سحب الدّخان وعربات تقل المحروقين والجرحى والموتى تمرّ مسرعةً أمامه عندما أُحرِقَ قصر العدل من قبل المتطرفين اليمينيّين. وقد كانت هذه الحادثة أوّلَ هزّة لمشاعر الطّفل أريش، وربّما أوّلَ حافز له على الالتزام بمصير الإنسان المسحوق في المجتمع الأوروبّي الرّأسمالي آنذاك، وعلى الالتزام بمصير هذا الإنسان في العالم كلّه وفي مقدّمته العالم الثّالث.

ومع تراكم السّنين أخذ التزام أريش فريد بُعداً واضحَ المسار. وهناك عامل آخر يراه النّاقد الألماني «كاوكورايت»: وهو كون أريش فريد ينحدر من عائلة يهوديّة رغم أنّه لم يكن متديّناً. وكانت تطفو على سطح الحياة الاجتماعيّة في أوروبّا، وبخاصّة في النّمسا وألمانيا، موجةٌ من اللاّساميّة؛ وقد أدّى هذا إلى تعميق الشّعور بالاضطهاد في نفس الصّبي النّاشئ.

ثمّ بدأت ميولُهُ الأدبيّة تظهر في المدرسة الإبتدائيّة حين كان يقوم بتمثيل أدوار بسيطة أمام الأطفال على مسارح كثيرة في ڤينّا وفي الأرياف. وفي المدرسة الثّانوية برزت هذه الميول رغم أنّه كان مشغولاً بالفيزيائيّات (وقام بإجراء تجربة على لمبة كهربائيّة وسجّل باسمه اختراعيْن في هذا المجال).

ثمّ تشكّلتْ بعد الحرب العالميّة الأولى جمهوريّة «فايمار» وحصل الغليان السّياسي والمدّ اليميني المتطرّف، وتزامنت فترة الهجوم على اليسار والاشتراكيين الأدباء والمفكّرين مع الفترة الموسومة باللاّساميّة النّازيّة. في هذه الفترة بالذّات هاجر أريش فريد الشّاب عام ١٩٣٨ إلى لندن بعد موت أبيه على يد الجستابو النازي. وفي بريطانيا بدأ ينشر الشّعر والمقالات في الصّحافة الألمانية المهاجرة ويُسهم في تحرير مجلاّت أدبيّة وثقافيّة وسياسيّة. وبدأ يعمل في القسم الألماني للإذاعة البريطانيّة.

في عام ١٩٥٣ وطأت قدماه لأوّل مرّة الأراضي الألمانية منذ غادر النّمسا. وبدأت الأوساط الأوروبيّة في ألمانيا ـ والبلدان النّاطقة باللّغة الألمانيّة ـ تسمع بأريش فريد الشّاعر الملتزم الرّفيع الثّقافة ومترجم شعر توماس دايلن ثمّ مسرحيات شكسبير ترجمةً حازت إعجاب النّقّاد والمسرحيّين وأساتذة الجامعات. ثمّ صدرتْ مجموعاته الشّعريّة متتابعة بعد أن نشر في بريطانيا مجموعتين هما: **النّمسا** (١٩٤٥)، **وألمانيا** (١٩٤٦). فتوالت كتبه من دور نشر ألمانيّة ونمساويّة، فصدرت: **مجموعة قصائد** (عام ١٩٥٨)، ورواية **جندي وفتاة** (١٩٦٠)، **ومملكة الحجاب** (١٩٦٣)، **وفيتنام** (١٩٦٦)، **ونزاعات** (١٩٦٧)، **وقضايا الزّمن** (١٩٦٨)، **وسيقان الكذبات الكبرى** (١٩٦٩)، **والسّم المضاد** (١٩٧٤)، **واسمعي يا إسرائيل** (١٩٧٤)، **وهكذا جئت إلى الألمان**... (١٩٧٧)، **ومئة قصيدة بلا وطن** (١٩٧٨)، **وقصائد حب** (١٩٧٩)، **وظلّ الحياة** (١٩٨٤) وغيرها من مجموعات شعريّة وكتب في النّقد والسّياسة والأدب.

أريش فريد اليساري الملتزم ـ اليهودي ـ غير المتبجح باليساريّة العوراء (كالّذين وقفوا إلى جانب فيتنام والحركات التّحريريّة الأخرى وحجبوا الموقف ذاته عن الشّعب الفلسطيني) عانى نتيجة التزامه العنتَ والقسوةَ والهجوم. كان ذلك خصوصاً عندما حدّد موقفه إلى جانب الشّعب الفلسطيني ضدّ الاحتلال الصّهيوني، وكتب قصيدته المشهورة «اسمعي يا إسرائيل» (ترجمها كاتبُ هذه السّطور عام ١٩٦٩ ونشرت في مجلة **الآداب** عدد ٤ ص ٦٣ / ١٩٦٩). فلقد واجه حملةً صهيونيّةً مذهلة من جراء هذه القصيدة في ألمانيا وبريطانيا والغرب عامّةً وإسرائيل، ونشرت مع كثير من القصائد الأخرى في مجموعة تحمل عنوان: **اسمعي يا إسرائيل** (Hore Israel).

كان أريش فريد يتجاوب مع الأحداث السّياسيّة سواء في الغرب أو الشّرق أو العالم الثّالث، يواجه بشعره الاضطهاد والعنصريّة والتّسلّح والظّلم. وأبرز موقف له في هذا المجال كان في إبّان حرب الفيتنام. وقد هاجمه كبارُ السّياسيّين والحكّام في ألمانيا في الصّحافة والبرلمان، كما هاجمه عددٌ من المثقّفين والشّعراء وانتُقِد شعرُهُ المسيَّس كثيراً، ولكنّه لم يأبه بذلك. وكان يتنقل بين المدن الألمانيّة يقرأ القصائد ويحاضر في المدارس والجامعات في الأدب والسّياسة ويشارك في التّظاهرات. وكانت كتبه تلقى رواجاً منقطعَ النّظير ولاسيّما مجموعاته الشّعريّة.

يكاد يُجمع النّقّاد على أن لأريش فريد قدرة فائقة على التّعبير وأنّه يمتلك زمام اللّغة على نحو لم يألفه الأدبُ الألماني بعد الحرب الثّانية إلاّ عند قلّة قليلة لا تتعدّى بيرتولد بريشت وجوديفريدبن، وأنزنسبرجر، وانجبورغ باخمان، بل يكاد يبرز بين شعراء الألمانيّة بما يُسمّى بـ«اللّعب بالكلمات» أي تحريك الألفاظ والمعاني وتداخلاتها ومجازاتها بفنّيّة وتكنيك يؤدّيان إلى هدف يحدّده الكاتب الشّاعر (Wortspiel).

أصيب أريش فريد بمرض سرطاني لم يُقعده عن مواصلة الكتابة والعمل والقراءات الشّعريّة. ومات وهو يقوم بجولة شعريّة في جنوب ألمانيا ـ في شهر تشرين الثّاني عام ١٩٨٨. وتأسّست منذ ثلاث سنوات جمعيّة أريش فريد في مدينة ڤينّا مكان ولادته، وتضمّ شعراء وأدباء من أجل الحفاظ على نتاجه وجمعه وأرشفته ومن أجل تشجيع الأدباء النّاشئين ونشر كتبهم وتخصيص جوائز أدبيّة لهم. وهي تجتمع كلّ عام في فصل الخريف وتقيم مهرجاناً أدبيّاً مرموقاً.

د. عيسى علاونة
ألمانيا

سؤال إلى المنتصر

وبعد أن نهبتَ الأرضَ وصرخ الدّمُ من
عمق أعماق الأرض
وعندما سئلت:
أين أخوك صاحبُ الأرض؟
أجبتَ: لا أدري.
ثمّ تساءلت: أَوَأَحبُّ عليَّ
أن أكون حارس أخي؟
وقلت: يجب أن يحرسوك
من نار أخيك
الّذي لا تعرف عنه شيئاً
أنت الّذي يحمل العلامه
ومن ثمّ تقول سبع مرّات
وجب الثّأر من قاتلك
إذاً فمن ذا تكون أنت؟

(من مجموعة: **اسمعي يا إسرائيل**)

بعض الأشياء

حوادث
أسماء أماكن
وتواريخ سنين:

[دير ياسين وحتّى عام ١٩٤٨]

قرية فلسطينيّة
ثمّ ٣٥٠ قتيلاً
وإسرائيل تعترف
بـ ٢٥٤ قتيلاً

القريةُ كُلُّها نساءً وأطفالاً ورجالاً
ثأرا لقتل امرأة يهوديّة وطفلين ـ
قُتلوا في ياهود.
اشترك في البحث عن القتلة
جلوب باشا والدّوائرُ الأردنيّة.
طلبوا من إسرائيل المساعدة في البحث
فكانت مساعدةُ إسرائيل: ما حصل بقبيّة!

[كفر قاسم ١٩٥٦]

حظرُ التّجول
يُعْلَن في منتصف النّهار
كان الفلاّحون في حقولهم
وما عرفوا شيئاً عن منع التّجول
عادوا من الحقول
أُوقفوا عند الجدار
ستّة وخمسين كانوا،
وهو ما تطلّب طلقاتٍ كثيرة!

[بحر البقر ١٩٧٠]

كانت مدرسة كبيرة
لا مدرسة غيرها في المنطقة طولاً
وعرضاً،
مزدحمة بالأطفال.
وكانت هدفاً لقنبلة.
لا أحد منكم كان يعرف عدد الأطفال
آنئذٍ
وبعد ذلك لم يبق في منطقة بحر البقر
أطفال!

[نهر البارد ١٩٧٢]

ومرّة أخرى
أطفال قتلى
في مخيّم اللاجئين
الّذي دمّروه

[في جنوب لبنان ١٩٧٢]

في جنوب لبنان
سيّارة تكسي تحطّمت
دهستها دبّابة إسرائيليّة
سبعةُ ركّاب بينهم طفل في الثّامنة من
العمر
ـ حوادث جانبيّة
كلّها حوادث جانبيّة
لكن يُقال:
إرهابٌ ذاك الّذي يقوم به الفلسطينيون!

* * *

هي

إنّها تأكل أطفالها
تشرب دمَ موتاها
تعظُ الحمائم
ولا تعرف قيماً عليا
تنسى دربَها

تتأرجح بين وقيعةٍ ووقيعة
ومن خطأ إلى خطأ
وتنام في النّكبات

يتعلّم كلُّ طفل في المدرسة
أنّها ليست ضروريّة
وأخيراً أدرك الشّعب
أنّه لا يريدها

ثبت بالبرهان عشر مرّات
أنّها لا تستطيع أن تنتصر
والّذين أثبتوا ذلك
لا يستطيعون النّوم قريري العين

وأولئك الّذين يؤمنون بها
متعبون من الشكّ
وبعض الّذين يكرهونها
يعلمون أنّها قادمة

شكوى

أيّها العالم الجميل...
ها نحن نقترب من النّهاية
وهذا الوحش
ينطلق من الدّرك الأسفل.
قبّة الأسفل الثّقيلة
ثقلَ الشّمس
تندلق في حلقومه

استيقظ (اللّوباثان)(*)
ولسوف يفترس النّجوم
فمن ذا يسعفني
في اللّيلة اللّيلاء
كي أنسى الحياة تماماً؟

إشعاع

ظلالي
تمتدح الضّوء الّذي ترميه
وتسأل:
إلى أين؟
فمادام الضّوء في العلاء
فإنَّ الظلَّ يهوي إلى الأرض
عندما يهبط الضّوء
يرتفع الظّل إلى العلاء
إلى أين؟
يطلع الضّوء
يرمي ظلالاً كثيره
ولا يسأل إلى أين!

في باحة الأمل

في باحة الأمل
يُستوقف الأطفال:
هيّا انظروا
مـا أجمـل أن يجلَـخ أبـونـا
«الحقدُ»
سكينَه
التّفاحة النّاضجة على الشّجرة تلك إلى
جانب كوم الخشب
سيفصمها شرائحَ طيّبة

وفي باحة الأمل
لا يعرفون الكدر
هيّا انظروا
ما أجمل أن تحفر أمنا «الأرضُ»
هذه الحفرة
سنلعب فيها غداً
لعبةَ الدّلو والقطائف
إلى أن يدبق الرّمل أيدينا وثيابنا

الصّيف على وشك النّهاية

ها قد أزِفَ الصّيف
وهناك في نهاية الدّرب
ينتصبُ الصّليبُ الخشبي
ويقعي الموت شاكياً
أنّنا لن نأتي

إنّنا ـ أنت وأنا ـ
قادمان بالتأكيد
تمشّينا في الطّريق الزّراعي.
أزهار الحقول
تحرس هذا الكون إنساناً وحيواناً
إذا ما سُئلتم
فطأطئوا الرّؤوس وقولوا:
إنّنا لم نرضَ عن حياتنا

إرشادات أريحيّة

جلّادي.. رجل يُحسن معاملتي
وهو يشغل باله
بالّذي أفكّر به
رغم أنْ لا متّسع من الوقت
لديه، لشغله الشّاغل في القتل..
لكنّه يجد قليلاً من وقت
فيبني المدارس
ويصرف المالَ على تعليمي

يهمّه أن أتعلّم
مازال الوقت سانحاً لذلك
إذ إنّني أعيش في عالم يغصّ بالجريمة
عالم نظامه كهذا
ليس السّعيُ لزلزلته
إلاّ محاولة انتحار.
وإنّ الّذي ينصحني
أن أغيّرهُ هو جلّادي...!

السّامعون

عندما يبدأ النّاس بالنّباح
تبكي الكلاب
وعندما يبدأ النّاس بالقُباع
تضحك الخنازير
وعندما ينقطع عويل الكلاب
وتنقطعُ قهقهةُ الخنازير
ترتجف الحجارة
من نباح النّاس وقُباعهم

وعد حافل

في أوّل يوم
من حرب الأيّام السّتة
أعلن رئيسُ وزراء إسرائيل
ليفي أشكول:
لا نريد أن نمتلك
ولو متراً واحداً من الأرض.
نادراً ما استغرقت
حربٌ هذه المدّةَ القصيرة.
أمّا وعد أشكول
فقد عاش مدّة أقصر

وجبة

اللّسان مدهون بالكلمات.
من الفم ترشح
الكلماتُ اليساريّةُ السّاقطة.
هنا تسمع خشخشة الأنفاس
وحفيف اللُّعاب
الكلمات تبدّل ألوانها
وتذبل ملوّنة!

(*) اللّوباثان: حيوان بحري ضخم يرمز إلى الشرّ في الكتاب المقدّس.